العدد 2612 - السنة التاسعة
الخميس 10 صفر 1438 - الموافق 10 نوفمبر 2016
Thursday 10 November 2016 - No.2612 - 9th Year

لا يسوغ للرجل أن يفقد خُلُقه مع من لا خُلُق له وأن يشغل نفسه بتأديب كل جهول

شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه

■ تحريم الجدل وسد أبوابه حقاً كان أو باطلاً من الضمانات التي اتخذها الإسلام لصيانة الكلام عن النزق والهوى

■ هناك أناس أوتوا بسطة في ألسنتهم تغريهم بالاشتباك مع العالم والجاهل فإذا سلطوا على شؤون الناس أساؤوا وعلى حقائق الدين شوّهوها

وقف رجل من الجهال أمام بيت الرسول يريد الدخول، فرأى النبي أن يحاسنه حتى صرفه، ولم يكن من ذلك بدّ فالحلم قدام السفيه ولو تركه يسكب ما في طبيعته الفظة لسمع ما تنتزه عنه آذناه!! وعن عائشة قالت: استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «بئس أخو العشيرة هو» فلما دخل انبسط إليه وألان له القول فلما خرج قلت: يا رسول الله، حين سمعت الرجل قلت كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه! فقال: يا عائشة متى عهدتني فاحشا؟ إن من شر الناس عند الله تعالى منزلة يوم القيامة، من تركه الناس اتقاء فحشه». وهذا مسلك تصبيقه التجارب، فإن الرجل لا يسوغ أن يفقد خلقه مع من لا خُلق له، ولو أنه شغل بتأديب كل جهول يلقاه لأعيته الحيل من كثرة ما سوف يلقى، ولذلك عد القرآن الكريم في أوائل الصفات التي يتحلى بها عباد الرحمن، هذه المداراة العاصمة: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما». «وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين». وقد يكظم الإنسان غيظه مرة أو مرتين ثم ينفجر.

بيد أن المطلوب من المسلم الفاضل، أن يطاول الأذى أكثر من ذلك حتى لا يدع الشر يسيطر على الموقف آخر الأمر. عن سعيد بن المسيب قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه وقع رجل بأبي بكر، فآذاه، فصمت عنه أبوبكر، ثم آذاه الثانية فصمت عنه، ثم آذاه الثالثة فرد عليه أبوبكر، فانصرف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فقال أبوبكر: أوجدت علي يا رسول الله؟ قال: لا، ولكن نزل ملك من السماء يكذبه بما قال، فلما انتصرت، ذهب الملك، وقعد الشيطان، فلم أكن لأجلس إذ قعد الشيطان». أو كما قال صلى الله عليه وسلم ومداراة السفهاء لا تغني قبول الدنية، فالفرق بين الحالين بعيد! الأولى ضبط النفس أمام عوامل الاستفزاز، ومنعها طوعا أو كرها من أن تستجيشها دواعي الغضب وإدراك الثأر. أما الأخرى فهي بلادة النفس، واستكانتها إلى الهون! وقبولها ما لا يرضى به ذو عقل أو مروءة. وقد أعلن القرآن محبته لمداراة السفهاء وكراهيته لقبول الدنية: «لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما. إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا».

ومن الضمانات التي اتخذها الإسلام لصيانة الكلام عن النزق والهوى تحريمه الجدل! وسدّه لأبوابه، حقا كان أو باطلا. ذلك أن هناك أحوالا تستبد بالنفس، وتغري بالمغالبة، وتجعل المرء يناوش غيره بالحديث، ويصيد الشبهات التي تدعم جانبه، والعبارات التي تروج حجته، فيكون حب الانتصار عنده أهم من إظهار الحق، وتبرز طبائع العناد والأثرة في صور منكرة، لا يبقى معها مكان لتبيّن أو طمأنينة!! والإسلام ينفر من هذه الأحوال ويعدّها خطرا على الدين والفضيلة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من ترك المراء وهو مبطل بُني له ببيت في ربض الجنة، ومن تركه وهو محق بُني له في وسطها، ومن حسن خلقه بُني له في أعلاها».

وهناك أناس أوتوا بسطة في ألسنتهم، تغريهم بالاشتباك مع العالم والجاهل، وتجعل الكلام لديهم شهوة غالبة، فهم لا يملونه أبدا. وهذا الصنف إذا سلط ذلاقته على شؤون الناس أساء، وإذا سلطها على حقائق الدين شوّه جمالها وأضاع هيبتها. وقد سخط الإسلام أشد السخط على هذا الفريق الثرثار المتقعّر. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم». وقال: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل». هذا الصنف لا يقف ببسطة لسانه عند حد، إنه يريد الكلام فحسب، يريد أن يباهي به ويستطيل. إن الألفاظ تأتي في المرتبة الأولى، والمعاني في المرتبة الثانية، أما الغرض النبيل، فربما كان له موضوع آخر، وربما عزّ له موضع، وسط هذا الصخب. ولقد حدث أن واحدا من أولئك الأغرار وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم «..عليه شارة حسنة» فجعل النبي لا يتكلم بكلام إلا كلفته نفسه أن يأتي بكلام يعلو كلام النبي صلى الله عليه وسلم!! فلما انصرف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يحب هذا وأضرابه، يلوون ألسنتهم للناس لي البقر بلسانها المرعى، كذلك يلوي الله تعالى ألسنتهم ووجوههم في النار». والجدال في الدين، والجدال في السياسة، والجدال في العلوم والآداب، عندما يتصدى له هذا النفر من الأدعياء البلغاء، يفسد به الدين، وتفسد السياسة والعلوم والآداب، ولعل السبب في الانهيار العمراني، والتحزب الفقهي، والانقسام الطائفي، وغير ذلك ما أصاب الأمة الإسلامية، هو هذا الجدل الملعون في حقائق الدين، وشؤون الحياة، والجدل أبعد شيء عن البحث النزيه والاستدلال الموفق.

أساليب المشركين في محاربة دعوة الإسلام

محاولات قريش لإبعاد أبي طالب عن حماية النبي صلى الله عليه وسلم

أجمع المشركون على محاربة الدعوة التي عرّت واقعهم الجاهلي، وعابت آلهتهم وسفهت أحلامهم، أي آراءهم وأفكارهم، وتصوراتهم عن الله والحياة والإنسان والكون، فاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة وإسكات صوتها، أو تحجيمها وتحديد مجال انتشارها.

وكانت أولى محاولات قريش لمحاربة النبي (صلى الله عليه وسلم) هي محاولة إبعاد عمه أبو طالب عن نصرته حيث «جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا. فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم. فحلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء فقال: «ترون هذه الشمس؟» قالوا: نعم. قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعلوا منها بشعلة» وفي رواية: «والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحد من هذه الشمس شعلة من نار» فقال أبو طالب: «والله ما كذب ابن أخي قط، فارجعوا راشدين». وحاولت قريش مرات عديدة الضغط على رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة عائلته ولكنها فشلت.

ذاع أمر حماية أبي طالب لابن أخيه، وتصميمه على مناصرته وعدم خذلانه، فاشتد ذلك على قريش غمّا وحسدا ومكرا، فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: «يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش، وأجملهم، فلك عقله ونصره، واتخذه ولدا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك، ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامنا، فنقتله فإنما هو رجل برجل» قال: «والله لبئس ما تسومونني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني فتقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبدا».

وإن المرء ليسمع عجبًا، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضم بني هاشم وبني المطلب إليه في حلف واحد على الحياة والموت، تأييدًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلمهم ومشركهم على السواء، وأجار ابن أخيه محمدا إجارة مفتوحة لا تقبل التردد أو الإحجام، كانت هذه الأعراف الجاهلية والتقاليد العربية تسخر من قبل النبي صلى الله عليه وسلم لخدمة الإسلام، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشا تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب عدو الله اللعين.

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره من جهدهم معهم، وحديهم عليه، جعل يمدحهم، ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم، وليحدبوا معه على أمره فقال:

إذا اجتمعت يومًا قريش لمفخر
فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حُصلت أشراف عبد مناقها
ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يومًا فإن محمدا
هو المصطفى من سر وكريمها
تداعت قريش غثها وثمينها
علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديمًا لا نقر ظلامة
إذا ما ثنوا صُعّر الخدود نُقيمها

وحين حاول أبو جهل أن يخفر جوار أبي طالب تصدى له حمزة، فشجه بقوسه، وقال له: تشتم محمدا وأنا على دينه، فرد ذلك إن استطعت.

إنها ظاهرة فذة أن تقوم الجاهلية بحماية من يسب آلهتها، ويعيب دينها، ويسفه أحلامها، وباسم هذه القيم يقدمون المهج والأرواح، ويخوضون المعارك والحروب، ولا يُمسّ محمد صلى الله عليه وسلم بسوء.

ولما خشي أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعوذ فيها بحرمة مكة، وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم في ذلك من شعره أنه غير مُسْلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تاركه لشيء أبدا حتى يهلك دونه فقال:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم
وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى
وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قومًا علينا أظلة
يعضون غيظا خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة
وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي
وأمسكت من أثوابه بالوصائل
وتعوذ بالبيت وبكل المقدسات التي فيه، وأقسم بالبيت بأنه لن يسلم محمدا ولو سالت الدماء أنهارًا واشتدت المعارك مع بطون قريش:

كذبتم وبيت الله نُبْزَى محمدا
ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله
ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم في الحديد إليكم
نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وفرّع زعماء بني عبد مناف بأسمائهم لخذلانهم إياه، فلعتبة بن ربيعة يقول:

فعتبة لا تسمع بنا قول كاشح
حسود كذوب مبغض ذي دغاول
ولأبي سفيان بن حرب يقول:

ومر أبو سفيان عني معرضا
كما مرّ فيل من عظام المقاول
يفر إلى نجد وبرد مياهه
ويزعم أني لست عنكم بغافل
وللمطعم بن عدي سيد بني نوفل يقول:

أمطعم لم أخذلك في يوم نجدة
ولا مَعْظم عند الأمور الجلائل
أمطعم إن القوم ساموك خطة
وإني متى أوكل فلست بوائل
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً
عقوبة شر عاجلاً غير آجل
لقد كان كسب النبي صلى الله عليه وسلم عمه في صف الدفاع عنه، نصرا عظيما، وقد استفاد صلى الله عليه وسلم من العرف القبلي فتمتع بحماية العشيرة، ومنع من أي اعتداء يقع عليه، وأعطى حرية التحرك والتفكير، وهذا يدل على فهم النبي صلى الله عليه وسلم للواقع الذي يتحرك فيه، وفي ذلك درس بالغ للدعاة إلى الله تعالى، للتعامل مع بيئتهم ومجتمعاتهم والاستفادة من القوانين والأعراف والتقاليد لخدمة دين الله.

من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم

تتعدد أوجه الإعجاز في كتاب الله بتعدد جوانب النظر فيه، فكل حرف من حروفه، وكل كلمة من كلماته، وكل آية من آياته فيها إعجاز لفظي وبياني ودلالي، وكل مجموعة من الآيات، وكل سورة من السور - طالت أو قصرت - تشهد لكتاب الله تعالى بأنه معجز بما فيها من قواعد عقدية أو أوامر تعبدية أو قيم أخلاقية أو ضوابط سلوكية أو أحداث تاريخية أو إشارات علمية إلى شيء من أشياء هذا الكون الفسيح وما فيه من ظواهر وسنن وكائنات.

فكل تشريع وكل قصة وكل واقعة تاريخية وكل وسيلة تربوية وكل نبوءة مستقبلية، وكل إشارة تنظيمية، وكل خطاب إلى النفس الإنسانية، جاء في القرآن الكريم يفيض بجلال الربوبية ويتميز عن كل صياغة إنسانية مما يشهد للقرآن الكريم بالتفرد كما يشهد بعجز الإنسان عن أن يأتي بشيء من مثله.

وقد أفاض المتحدثون عن أوجه الإعجاز في كتاب الله، فكان منهم من رأى ذلك في جمال بيانه ودقة نظمه وكمال بلاغته وروعة معانيه وشمولها واتساقها ودقة صياغتها وقدرتها على مخاطبة الناس على اختلاف مداركهم وأزمانهم وإشعاعها بجلال الربوبية في كل آية من آياته، ومنهم من أدرك أن إعجاز القرآن هو في كمال تشريعه ودقة تفاصيل ذلك التشريع وحكمته وشموله، ومنهم من وجده في استعراضه الدقيق لمسيرة البشرية ولتاريخ عدد من الأمم السابقة من لدن أبينا آدم - عليه السلام - إلى خاتم الأنبياء والمرسلين - عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى السلام، مما لم يكن يعلم تفاصيله أحد من الناس في زمن الوحي.

ومنهم من رأى إعجاز القرآن الكريم في منهجه التربوي الفريد وأطره النفسية السامية والعلمية في نفس الوقت والثابتة على مر الأيام، أو في أنبائه بالغيب مما تحقق بعد نزوله بسنوات طويلة، أو في إشارته إلى العديد من حقائق الكون وسنن الله فيه مما لم يكن ممكنا لأحد من البشر أن يصل إلى شيء من معرفته وقت نزول القرآن الكريم ولا لمئات السنين من بعد ذلك.

ومنهم من رأى إعجاز القرآن في صموده أمام كل محاولات التحريف التي قامت بها قوى الشر المتعددة متمثلة في الكفرة والمشركين والملاحدة المتشككين على مدى الأربعة عشر قرنا الماضية وذلك لأن الله تعالى قد تعهد بحفظه بعهده الذي قطعه - سبحانه وتعالى - على ذاته العلية ولم يقطعه لرسالة سابقة أبدا، وذلك بقوله العزيز: «إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» (الحجر:9).

ومن العلماء من يرى إعجاز القرآن الكريم في ذلك كله وفي غيره مما يقصر الحديث عنه فهناك الإعجاز اللغوي، البياني، النظمي؛ والإعجاز العقدي والتعبدي والأخلاقي، والتشريعي، وهناك الإعجاز التاريخي، والتربوي، والنفسي، والاقتصادي، والإداري، والإعلامي، وهناك الإعجاز العلمي والتقني، والإعجاز العددي (الرقمي) الحسابي، وإعجاز التحدي الذي لم يجب ولن يجب إلى قيام الساعة، والإعجاز الحفظي، وغير ذلك كثير.